العبادة، العبودية، العبودة

ترد العبادة والعبودية بمعنى؛ إقامة أوامر الله، واستشعار التذلل والرقّ والخضوع له تعالى. وعلى الرغم من أنهما بمعنى واحد لدى البعض، فإن الأغلبية يركزون على أن هاتين الكلمتين تختلفان في المعنى مثلما اختلفا في المبنى.

فالعبادة هي: قضاء الحياة بامتثال أوامر الله وتكاليفه. وتقابلها العبودية التي هي البقاء بشعور الرقّ لله. ويبين هذا الفرق بوضوح هو أن الذي يواظب على العبادات يطلق عليه اسم "العابد" والذي يقيم العبودية يسمى "عبداً". وهناك نظرات أخرى مختلفة في كتاب "تأملات حول سورة الفاتحة".[1]

وكذلك، فرق دقيق بين العبادة والعبودية، أن العبادة هي أداء كل تكليف من التكاليف المالية والبدنية بمشقة وصعوبة، مع غاية الخوف والرجاء الدائرين حول النية والإخلاص، بينما العبودية هي كل عمل وواجب لا ينطوي عند إنجازه على أنماط هذه الأبعاد.

وأعتقد أن ابن الفارض قد أشار في بيته الآتي إلى هذا الفرق:

---

١) كتاب للمؤلف المحترم، لم يترجم بعد إلى العربية.

وَكُلُّ مَقَامٍ عَنْ سُلُوكٍ قَطَعْتُهُ عُبُودِيَّةٌ حَقَّقْتُهَا بِعُبُودَتِي

ومن جانب آخر عرّف قسم من الصوفية العبادة، بقيام العوام بواجب الرقّ لله، والعبودية هي الواجب الذي يؤديه أصحاب الشعور والبصيرة، أما العبودة فهي لصفوة الصفوة بإيفائهم التكاليف حقها. حيث إن العبادة: هي عمل لأصحاب المجاهدات، والعبودية: طور أرباب المكابدات الذين يقتحمون الصعاب التي لا تُقتَحم، والعبودة: حال المتوجهين إلى الحق سبحانه بسعة قلوبهم ووسع أرواحهم.

وبتوجيه آخر، فهناك من أرجع جميع ما ذُكر سابقاً إلى: "العبادة الذاتية المطلقة" و"العبادة الصفاتية المقيدة".

ويمكن أن نعبّر عن الأول أنه دوام استشعار العلاقات بين الخالق والمخلوق، والعبد والمعبود، والشاهد والرقيب، والمشَاهد والمراقَب، ودوام امتثال هذه الروح، مُوقفاً حياته على هذا المعنى في الشعور والفكر والطور والسلوك.

والثاني بأنه تفصيل هذا الإجمال، وإحياء هذا المعنى، بهيمنة الإرادة وتلوينها لهذه المشاعر والأفكار. وهذا يقسّم إلى الأقسام الآتية حسب الإرادة والعزم والنية والخلوص:

أ . العبادات التي تُنجَز رغبةً في الجنة وشوقاً إليها.

ب . التكاليف التي تُقام خوفاً من جهنم وخشيتها.

ج . المهمات التي تؤدّى بشعور المهابة والمخافة والمحبة.

د . الواجبات التي تُمثّل بمقتضى العلاقات بين العبد والمعبود، والخالق والمخلوق..

هذا وقد أطلق البعض على القسم الأول من هؤلاء اسم: التجار، وعلى الثاني اسم: العبيد، وعلى الثالث اسم: الصادقون، وعلى الرابع اسم: العشاق. ولعل قول رابعة العدوية بمثابة معيار في هذا الصدد، حيث قالت: "ما عبدتُه خوفاً من ناره، ولا حباً في جنته، فأكون كالأجير السوء، بل عبدتُه حباً وشوقاً إليه".

وأياً كان الأمر، فالعبودية بأي شكل من الأشكال، هي لونُ كرامة الإنسان، وأعظم مرتبة مُنحها. ولديمومتها التي في أساسها تتفوق -في معنى من المعاني- حتى على أعظم المراتب الإلهية التي تتقدمها لعدم ديمومتها. إذ لما ذكر الله تعالى ذلك الرسول الحبيب ﷺ، مرشد الكل والمقتدى الأكمل، في أفضل الأقوال (وهي الشهادة)، ذكر "عبدُه" ثم توّج هذه الجملة المباركة بـ"رسولُه".. وكذا عندما دعا سبحانه شرف نوع الإنسان، وفريد الكون والزمان ﷺ باسم المعراج ليشرّف به السموات، وضع في مقدمة دعوته (أَسْرَى بِعَبْدِه) تكرمةً له وإشارة إلى هذا التفوق الخاص لعبوديته. ولاسيما في هذه الرحلة السماوية، عندما تحول المكان إلى لا مكان، وغدا الروح رفيقاً حبيباً لذلك الجسم المبارك وأحاطت أشعة "سُبُحات وجهه سبحانه" المضيئة بألوان الترحاب من كل جانب في ذلك الاستقبال الرائع بين ألف تبجيل وتعظيم، فأُخذت "العبودية" إلى المقدمة في خطاب ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ (النجم: ١٠). فياله من مغزى عميق!..

ومولانا جلال الدين الرومي لا يعتزّ بأنه سلطان الكلام وأنه قد فاق زمانه، ولا بالعمق المحيّر لفكره، بل يفتخر بعبوديته لله ويجيش قائلاً:

مَنْ بَنْدَه شُدَمْ بَنْدَه شُدَمْ بَنْدَه شُدَمْ

مَنْ بَنْدَه بَخِدْمَتِ تُوسَرْ اَفْكَنْدَه شُدَمْ

هَرْ بَنْدَه كِه آزَادْ شَوَدْ شَادْ شَوَدْ

مَنْ شَادْ اَزْ آنَمْ كِه تُرَا بَنْدَه شُدَمْ

أي: "أصبحتُ عبداً، أصبحت عبداً، أصبحت عبداً، فأنا في طاعتك خاضع متضرع. العبيد يسعدون عندما يحرَّرون، أما أنا فقد سُعدت بعبوديتي لك".

وهناك آخرون حمّلوا العبادة والعبودية معاني مختلفة منها:

– استشعار العبد بتقصيراته وارتعاشه منها حتى عند وفائه لعبوديته حق الوفاء.

– تزيين حياته بثوانيها وثوالثها بشعور العبودية تجاه ربوبيته الأزلية والأبدية سبحانه وتعالى بإعطاء الإرادة والسعي حقَّهما دون تقصير في البداية، والتبرّي من حوله وقوته لدى تقييم النتيجة.

– عَدّ الأشياء الوجودية بأنها ظل ضياء وجوده سبحانه والتصرف وفق ذلك. وعدم الافتخار بغصبها وتملّكها، وعدم التلبس بإظهار المسكنة بتجاهل نِعَم الحق تعالى وآلائه عليه.

– الشعور الدائمي بشرف الانتساب إليه تعالى في الوجدان. واعتبار كل شرف ومرتبة غيره ليس نسباً ولا انتساباً.

هذه وأمثالها هي بعض تلك الخصائص.

وعلى هذا يصح أن نقول: لا مرتبة ولا منصب أعلى من العبودية. فإن

كانت فهي الحرية التي هي بُعدٌ آخر من أبعاد العبودية أيضاً، حيث يشعر بها المبتدئ، ويحيا بها المنتهي ويتذوقها. وهي تجرد القلب من كل ما سوى الله والعلاقة معه والارتباط به. وأعتقد أن الحرية الحقة هي هذه من حيث القيم التي جُهزّ بها الإنسان.

وقد لفت النظر أحد أولياء الحق إلى هذا الأمر الدقيق فقال:

بَندْ بَكُسِل بَاشْ آزاد اُى پَسَر چَندْ بَاشِي بَندِ سِيمُ وبَندِ زَر[1]

يعني: أيها الولد، فكّ السلاسل، وكن حراً، فإلى متى تبقى مكبلاً بالذهب والفضة".

وينبه جنيد البغدادي إلى أن المرء لا يصل إلى حقيقة العبودية لله ما لم يتحرر من أسر ما سواه تعالى.[2]

وآخر يخطو خطوة أخرى ويخبر أنه حتى مستتبعات المشاعر والأفكار والسلوك والأطوار لا بد أن تكون مغلقة دون الأغيار، ويقول:

كُوس نَامُوس اَرْ زَنِي اَز چَرخِ اَنْجَمْ بَر گُزَر

چُون دَفِ رُسْوابِيست إِين پُر جَلال چَنْبرست

أي: "إن كنت تريد أن تدق طبل الناموس فتجاوز دولاب النجوم، لأن الدف المملوء إطاره بالأجراس هو دف الخزى والعار".

---

١) مثنوي معنوي لمولانا جلال الدين (فارسي) ج١/ص١٣/ب١٩.

٢) "إنك لا تصل إلى صريح الحرية وعليك من حقيقة عبوديته بقية" (الرسالة للقشيري ٣٤٩).

اللّهم وفّقنا لما تحب وترضى، وصلّ وسلمّ على محمد المرتضى وآله وأصحابه ذوي الوفاء.

المراقبة

المراقبة هي وضع الشيء تحت الملاحظة، الانتظار، الترصد والعيش بشعور المترصَّد. ولدى أهل الحال هي: التوجّه إلى الله قلباً بقطع العلائق عمن سواه تعالى، واستدامة الحياة بإلجام النفس عن المنهيات، وتنسيق الحياة في ضوء أوامر الله تعالى إيماناً بأن الله قد أحاط بكل شيء علماً. ويمكن أن نعرّف المراقبة أيضاً أنها: السعي الحثيث وراء مراد الله، والمرور بحياتنا وسلوكنا على نمط جاد في توحّد الداخل والخارج تحت نظارة الله سبحانه. وهذا لا يتم إلاّ بالاعتقاد بأن الله مطّلع على جميع أحوال الإنسان، أي أنه سبحانه يسمع أقواله ويعلمها، ويعرف أطواره ويقدّرها، ويرى أعماله ويدوّنها. ويذكّرنا القرآن الكريم ببيانه المنوّر بهذه الحقيقة في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ (يونس:٦١).

فلئن كانت المراقبة انغلاق القلب كلياً تجاه ما لا يرضى به الله من خواطر غير لائقة وأفكار تافهة تبعد عن حضوره سبحانه، ومن ملاحظات مكدرة تتحكم في السلوك، وتنظيم جميع قنوات الروح المفتوحة إلى اللانهاية وفق الواردات الإلهية.. فالذي ينبغي علينا إذن هو تقييم هذا الفتح والغلق سلباً وإيجاباً تقييماً جيداً.

وأول خطوة في المراقبة هي: إيثار ما آثره الله تعالى وتفضيله على أعمق رغباتنا الداخلية، وتعظيم ما عظّمه الله تعالى وجعلُه فوق رؤوسنا، وتصغير ما صغّره الله تعالى ونَبذه من قلوبنا وخواطرنا.

ولا شك أن التفكر في سعة رحمة الحق سبحانه، يفجّر محبة الله وعشق عبادته. أما مهابته ومخافته سبحانه، فإنها تُفقد الشهية وتقطع الرغبة نحو المعاصي، وتدفع الإنسان إلى حياة حذرة متنبهة. وأما المراقبة فهي تصفي العبادات والطاعات غربلة دقيقة حتى لا يبقى إلاّ ما يريده الله سبحانه، كما يصفّي المنخلُ الأجسامَ. ذلك لأن المراقبة في الوقت نفسه هي بذل الإنسان جهده لئلا تتكدَّر مشاعره وأفكاره، حتى في أوقات انفراده وحده، لشعوره بأنه مشهود ومراقَب في كل آن.

وطريق المراقبة هو من أهم الطرق القصيرة الموصلة إلى الحق سبحانه ودونما حاجة إلى مرشد ودليل، فهي مطعّمة بعينات الولاية الكبرى. وبواسل هذا الطريق يمكنهم أن يتوجّهوا إلى الحق سبحانه في أي زمان ومكان، بعرضهم العجز والفقر فيُقبَلون إلى الخلوة بتذكرة الحاجة. وعندما يتأملون في الطبيعة كل آن من حياتهم يشعرون أن الله يراقبهم، فيجنّبون نظرهم عن الأغيار. وعندما يستمعون إلى الأشياء يكفّون آذانهم كلياً عن الأصوات التي لا تنطق باسمه سبحانه، ويسعون لإدراك كل ما يخصّه هو سبحانه، وعندما يتكلمون عن الوجود يغدون بلبلاً غريداً مفصحاً عن جماله وحسنه، ولا يأبهون بما لا يُقدر على ربطه به سبحانه، فيظلون صامتين بُكُماً نحوه. نعم، إن كانت العين لا تذكّر أنه البصير والأذن لا تذكّر أنه السميع واللسان لا

يذكّر بيانه البديع، فما الفرق بين هذه الأعضاء وقطعة لحم؟

ويعدّ مولانا الرومي المراقبة ستاراً وصيانة عن الرغبات الفاسدة والسلوك الرديء، وضماناً فريداً لرعاية حقوق الله، في قوله: "لقد نعت الله نفسه بـ"البصير" كي تكون خائفاً تجاه المفاسد، ووصف نفسه بـ"السميع" كي تسد شفاهك عن كل شيء فاسد.. وقال عن نفسه بأنه "العليم" ليُعلمك علمَه بك ويحذّرك من الفكر الفاسد".

إن بداية المراقبة ومرحلتها الأولى: حصول اليقين بأن الله حاضر وناظر ومطّلع على أحوالنا كلها، باستسلام قلبي لإرادته ومشيئته وتفضيل مراداته سبحانه على مراداتنا، والسياحة في أفق ﴿وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ (الأحزاب:٥٢).

ومرحلتها الثانية: توجّه السالك إلى الله بحضور قلب، وانتظار ورود الفيوض الإلهية إلى قلبه بصبر وتمكين وتيقظ. ففي مثل هذا التوجّه لا حاجة إلى مرشد، وذكر، ورابطة، وإذا ما وجدت هذه الأمور مع الموافقة للآداب الشرعية فنعمّا هي.

وسواء أكانت المرحلة الأولى أم الثانية؛ إذا تمكن سالك طريق الحق من استجماع ذاته وكيانه ممتثلاً بروح الإحسان الذي يوضّحه الحديث الشريف (أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ)[1].. ورأى نفسه بتسليم تام أنه لا حول له ولا قوة وأنه عاجز فقير، لئلا تنقطع هذه الرؤية.. وأذعن بأنه وحده سبحانه نقطة استناد ونقطة استمداد فقال: "لا أستغني عنك خذ

١) البخاري، الإيمان ٣٧، تفسير القرآن، لقمان ٢؛ مسلم، الإيمان ١.

بيدي يا إلهي.. خذ بيدي".. فإنه بمقدار معرفته هذه يكون في طريق مراقبة سليمة وبدوره يمكن أن يعدّ في أمان.

فالذين يمضون حياتهم على هذا النمط من السلوك، تحدث في أرواحهم بمرور الزمان مَلَكة -ويمكن أن نعبّر عنها بحضور القلب أيضاً- فيظل الوجدان مفتوحاً دائماً بوساطة هذه المَلَكة للواردات الإلهية، وتبدأ الفيوض تسيل سيلاً إليه من حضرة الأحدية.

إن أهم واسطة للمراقبة هي المحاسبة -وقد بُحثت بحثاً مستقلاً- والتي تعني تفقّد الإنسان خفايا نفسه ووعيه للبحث عما بدر منه من سيئات وأخطاء، وإلجام حواس أخرى تريد التحكم في ذاته. إذ بطريق المحاسبة يمكن للفرد أن يجد الصواب في قلبه، فيمثّله في سلوكه.. ويتبين لديه بوضوح تام سر "سبحان من يراني ويعرف مكاني ويسمع كلامي". فمثل هذا الشخص يشعر بجميع كيانه وعموم أحواله أنه مراقَب بعلمه تعالى ومشيئته، فيرتعش منه.. وإذا به في كل طرفة عين يبحث عن مراده سبحانه ورضاه.

اَللّهم أرِنا الحقَّ حقاً وارزقنا اتّباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه،
وصلّ وسلم على أشرف خلقك محمد سيد الأنام
وعلى آله وأصحابه ذوي الاحترام.

الإخلاص

الإخلاص هو الصدق، الصفاء، ما لا شائبة فيه، البعد عن الرياء. الكفّ عن كل ما يكدّر القلب، والعيش هكذا.. أو صفاء القلب، واستقامة الفكر، والبعد عن الأغراض الدنيوية في العلاقة مع الله، وإيفاء العبودية حقها.. هكذا عُرّف الإخلاص، بل يدور أغلب ما ذكره المشايخ الكرام فيما بعدُ من تعاريف حول ما ذكر.

الإخلاص في عبادة الفرد وطاعته، هو كفّه عن كل ما هو خارج عن أمره تعالى وإرادته وإحسانه، حافظاً للأسرار التي بين العبد والمعبود.. وقيامه بأعماله على أساس عرضها على الناقد البصير. وبتعبير آخر: هو قيام العبد بواجباته ومسؤولياته، لأن الله أمر بها، وابتغاء رضاه لدى أدائه لها، وتوجهه لألطافه الأخروية، لذا عُدّ من أهم صفات صفوة الصفوة الصادقين.

وعلى هذا الأساس، عُدّ الوفاء الصادق أصلاً ومنبعاً، والإخلاص زلالاً نابعاً منها. وقد بيّن ذلك سيد البيان الذي أوتي جوامع الكلم ﷺ بقوله: (مَن أخلص لله تعالى أربعين يوماً ظهرت ينابيعُ الحكمة على لسانه).[1]

---

١) انظر: المصنّف لابن أبي شيبه ٨٠/٧؛ المسند للديلمي ٥٦٤/٣؛ حلية الأولياء لأبي نعيم ١٨٩/٥، ٧٠/١٠.

فالوفاء الصادق أُولى الأوصاف التي يتحلى بها عالَم الأنبياء عليهم السلام. أما الإخلاص فهو أنور أبعاده. فهم منذ الولادة مُنحوا الإخلاص الذي يحاول غيرُهم الحصول عليه طوال حياتهم. والقرآن الكريم يذكّرنا بذلك لدى ذكره إخلاص نبي بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ (مريم:٥١).

ومثلما أن كلاً من الوفاء الصادق والإخلاص صفات حياتية للأنبياء الكرام عليهم السلام، فكل منهما أيضاً وصف ضروري كالماء والهواء لمثلي دعوة النبوة. فامتلاك هاتين الخاصتين، والطيران بهذين الجناحين النورانيين، من أعظم منابع قوتهم. فالأُوَل يؤمنون أنهم لا يقدرون على تقديم خطوة واحدة من دون إخلاص، والآخرون عليهم بأن يؤمنوا أنهم لا يستطيعون ذلك.

وحقاً إن الوفاء الصادق والإخلاص عميقان إلى درجة أنّ أحد طرفيهما في قلب الإنسان والآخر لدى العناية الإلهية سبحانه، حتى أنه لم يشاهد أن بقي في الطريق ضائعاً من فتح أشرعة سفينته وخاض غمار هذه الأعماق وطار بذلك الجناح. ذلك لأنهم في ذمة الله. فإن ابتغاء رضاه سبحانه أفضل عنده من كثرة العمل ووفرة الثمرات. "لأن ذرة من عمل خالص أفضل عند الله من أطنان من الأعمال المشوبة".[1]

والإخلاص عمل قلبي. وإن الله يقدّر الأعمال وفق الميول القلبية كما في الحديث الشريف: (إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلا إِلَى صُوَرِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ).[2]

---

١) اللمعات لبديع الزمان سعيد النورسي ٢٠١.

٢) مسلم، البر ٣٣.

والإخلاص وثيقة اعتماد يمنحها الله القلوب الطاهرة، فهي وثيقة سحرية تجعل القليل كثيراً والضحل عميقاً والعبادات والطاعات المحدودة غير محدودة. حتى يستطيع الإنسان بوساطتها أن يطلب أغلى ما في سوق الدنيا والآخرة. ويتمكن بفضلها أن يقابل بالاحترام والتوقير رغم كثرة الطالبين.

ولأجل هذه القوة الخفية للإخلاص، يقول الرسول ﷺ (أَخْلِصْ دِينَكَ يَكْفِكَ الْقَلِيلُ مِنَ الْعَمَلِ)[1] وينبه أن تكون الأعمال خالصة لله (أخلِصُوا أَعْمَالَكُمْ فَإِن اللهَ لاَ يَقبَلُ منَ الْعَمَلِ إلاَّ مَا خَلَص).[2]

فإن كان العمل جسداً فروحُه الإخلاص. وإن كان العمل جناحاً فجناحه الآخر الإخلاص. فلا جسد بلا روح، ولا يوصل إلى مكان بجناح واحد.

ويئن مولانا الرومي في كلامه الجميل:

بَايَدَتْ إِخْلاَص دَرْ جُملَه عَمل تَا پَذِيرَد طَاعَتَتْ رَبّ أَجَل

چُونْكِه إِخْلاص مُرغِ طَاعَترا جَنَاح بِي جَنَاح كُيْ مِي پَرِي أَوجِ فَلاَح

أي: عليك بالإخلاص في أعمالك وأطوارك كلها كي يقبل الرب الجليل طاعاتك؛ لأن الإخلاص جناح طير الطاعة، فكيف تطير إلى ساحة الفلاح دون جناح.

---

١) شعب الإيمان للبيهقي ٣٤٢/٥؛ المسند للديلمي ٤٣٥/١.

٢) السنة للدار قطني ٥١/١؛ شعب الإيمان للبيهقي ٣٣٦/٥؛ المسند للديلمي ٢٧١/٥؛ الأحاديث المختارة لضياء الدين المقدسي ٩٠/٨.

وكلام جميل آخر ليزيد البسطامي: لقد بذلت ما بوسعي فعبدت الله ثلاثين سنة. ثم سمعت هاتفاً يقول: "يا أبا يزيد إن خزائن الله ملآى بالعبادات. إن كنت تبغي الوصول إليه تعالى، استصغر نفسَك في باب الحق وكن مخلصاً في عملك" فانتبهت.

والإخلاص لدى البعض: التوقي عن ملاحظة الخَلق في العبادة والطاعة. وآخرون قالوا: نسيان رؤية الخلق كلياً. وآخرون: عدم تخطر الإخلاص نفسه.

نعم، الإخلاص لدى هؤلاء: إبعاد العمل عن كل ملاحظة وشائبة، ونسيان جميع الحظوظ المادية والمعنوية بالمراقبة المستديمة.

والأصح في الإخلاص أنه: سرٌّ بين العبد والمعبود استودعه الله قلب من أحبّه من عباده.[1]

ويستوي في نظر من تنبّه قلبُه بالإخلاص، المدح والذم، التعظيم والتحقير، معرفة الناس أو جهلهم به أو لأعماله، بل حتى ترقب الثواب والأجر... كل ذلك غير وارد عنده، لذا فأحوال أمثال هؤلاء الخفية والظاهرة سواء.

اللّهم اجعلنا من عبادك المخلِصين المخلَصين، وصلّ وسلّم على قدوة المخلَصين وآله وأصحابه المخلصين.

---

١) ورد خبر مسند: أن النبي ﷺ أخبر عن جبريل عليه السلام عن الله سبحانه وتعالى، أنه قال: "الإخلاص سرٌّ من سرّي استودعتُه قلب من أحببته من عبادي". أخرجه الحافظ العراقي في إحياء علوم الدين، الباب الثاني في الإخلاص. من الرسالة للقشيري ٣٣٠. وانظر: هذا المعنى في حديث قدسي: المسند للديلمي ١٨٧/٣.

الاستقامة

الاستقامة التي تعني السداد والاعتدال عُرّفت لدى أهل الحقيقة: تجنب الإفراط والتفريط في كل الأمور؛ في الاعتقاد، في الأعمال، في جميع المعاملات والأحوال والكلام، بل حتى في الأكل والشرب، مراعياً السير في طريق الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، فهؤلاء، يُبشَّرون في العقبى وتحتفي بهم الملائكة صفاً صفاً، فيبتهجون بهذه البشائر في يوم يخيّم فيه الخوف والهلع وتتوالى فيه العقبات من كل جانب، وذلك لإيمانهم بربوبية الله سبحانه وتصديقهم بوحدانيته جلّ وعلا، ولسلوكهم مسلك الأنبياء في إيمانهم وأعمالهم ومعاملاتهم. كما تخبر به الآية الكريمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنزلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (فصلت: ٣٠).

الاستقامة في مرتبة الطبع: إقامة التكاليف. وفي مرتبة الذاتية (الإنيّة): الاطلاع على حقيقة الشريعة. وفي مرتبة الروح: الانفتاح للمعرفة. وفي مرتبة السر: تذوق روح الشريعة. ونلمس الصعوبة البالغة في رؤية هذه المراتب ورعايتها في قول ذلك العظيم روحاً ومعنى ﷺ، حيث قال بمغزى عميق:

(شَيَّبَتْنِي هُودٌ)[1] مشيراً به إلى الآية الكريمة ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ (هود:١١٢). أوَ ليست مشاعره وفكره وأحواله وأطواره كلها كانت على الاستقامة ؟ ويسأله صحابي جليل يريد النجاة والفوز بالسعادة الأبدية قائلاً: (يَا رَسُولَ اللهِ حَدِّثْنِي بِأَمْرٍ أَعْتَصِمُ بِهِ. قَالَ: قُلْ رَبِّيَ اللهُ ثُمَّ اسْتَقِمْ)[2] فاختصر ﷺ في جملتين اثنتين من جوامع الكلم، الاستقامة التي هي جامع أسس العقائد والأعمال.

نعم، إن لم يكن سالك طريق الحق مستقيماً في حالته، ضاع سعيه وخاب جهده. كما يُسأل عن إضاعته للزمان من غير طائل.

الاستقامة شرط في البداية وزاد في الطريق للحصول على النتيجة، فهي منطلق الطريق. أما في نهاية السلوك فهي عوض معرفة الحق سبحانه وثمنها، وشكرٌ – يعدّ واجباً – لبلوغ معرفة الحق.

ومن أهم علامات الاستقامة: خلو الحياة من الروَغان في البداية، ومراقبة النفس في أثناء الطريق، والكفّ عن كل ما لا علاقة له بالله سبحانه من فكر وسلوك.

وما ألطف ما قاله أحد أولياء الحق:

كَسِي دَائَم زِ اَهْلِ اِسْتِقَامَتْ كه بَاشَدْ بَر سَرِ كُوي هِدَايت
بَا اَنْوَار هُويت جَان سُپرده زِاُوسَاخ طَبِيعَت پَاك مُرْدَه

أي: أعلمُ أن أحدَ رجال الاستقامة، قد أقام على رأس قرية الهداية، كان

---

١) الترمذي، تفسير القرآن ٥٧.

٢) مسلم، الإيمان ٦٢؛ المسند للامام أحمد ٣٨٥/٤.

يُودِع روحه وأسلمها وديعة إلى الأنوار الذاتية، فمات طاهراً من لوثات الطبيعة.

نعم، على العبد أن يكون طالب الاستقامة، لا طالب الكشف والكرامة، ذلك لأن الله هو الذي يطالب بالإستقامة والعبد مولع بالخوارق. فأيهما يُفضّل: ما يطلبه الله أم ما تعلقت به قلوبنا ونظل لاهثين وراءه؟

ولما قيل لأبي يزيد البسطامي: إن فلاناً يسير على الماء ويطير في الهواء، قال: والأسماك والضفادع كذلك تسبح في الماء، والذباب والطيور تطير في الهواء "ولو رأيتم أحداً فرش سجادته على الماء وهو يعوم أو تربع في الهواء، فلا تقتدوا به حتى تنظروا ما في أحواله من استقامة ومطابقة للسنة النبوية".[1] فيرشدنا بهذا إلى التواضع الجمّ على خط الاستقامة وميدان العبودية دون التحليق في أجواء الكرامات والخوارق.

الاستقامة، في طريق القربة (إلى الله) هي المرتبة الأخيرة لثلاث مراتب:

المنزل الأول: التقويم، يوفق السالك في هذه المرتبة على تأديب نفسه إلى حدّ ما بتوالي أدائه لأقسام الإسلام النظرية والعملية، حتى يجعلها جزءاً لا يتجزأ من طبيعته.

المنزل الثاني: الإقامة والسكون، يبتعد السالك عن المساوئ التي تخص عالم الأمر -كالرياء والسمعة والعجب التي لا تأتلف قطعاً مع العبودية- فيهذّب قلبه من الشرك وشوائبه.

---

١) انظر: حلية الأولياء لابي نعيم ٤٠/١٠؛ شعب الإيمان للبيهقي ٣٠١/٢. "قال: لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرفع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة".

المنـــزل الثالث: الاستقامة، هذا المقام هو مقام انفراج أبـــواب الـــسر لسالك طريق الحق، ونقطة قطب لنـــزول الواردات الإلهية باسم الكرامات والإكرامات. فالاستقامة بهذا المعنى، وبالشكل المتعارف بين أهل الحق، هي إدامة الحياة في دائرة "يد الله" ووفق "قدم صدق"،[1] منخلعاً في كثير مـــن الأوقات من العاديات، حيث إن هذا الإقليم إقليم الخوارق الذي تنـــزل فيه الألطاف الإلهية غدقاً... فالأزهار فيه لا تذبل، والمروج فيه لا تعرف القـــر والحر.. بل ربيع دائم مقيم يزهر. هذه الديمومة وعدم الموت تبيّنـــها الآيـــة الكريمة ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَـــدَقًا﴾ (الجـــن:١٦)، فورود (أَسْقَيْنَاهُم) بدلاً من (سَقَيْنَاهُم) يـــشير إلى هـــذه الحقيقـــة، أي إلى الدوام، كما أن (غَدَقًا) يعني الماء الغامر الكثير. وكذا الـــ(س) الموجودة في (اسْتَقَامُوا) الدالة على الطلب تذكّرنا بالآتي: أنتم لو طلبتم إقامة حيـــاتكم على التوحيد، وراعيتم العهود التي بينكم وبين الله ورسوله ﷺ، وحـــافظتم على الحدود الإلهية، سيسيل عليكم هذا النبع دون انقطاع.

وسيدنا الرسول ﷺ يقول مشيراً إلى هذه الحقيقة: (لا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ وَلا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ)[2] وكذا يقول: (إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإِنَّ أَعْضَاءَهُ تُكَفِّرُ اللِّسَانَ تَقُولُ اتَّقِ اللَّهَ فِينَا فَإِنَّكَ إِنِ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا وَإِنِ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا).[3]

---

١) مقتبس من الآيتين الكريمتين: ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ و﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.
٢) المسند للامام أحمد ١٩٨/٣؛ شعب الإيمان للبيهقي ٤١/١.
٣) الترمذي، الزهد ٦٠؛ المسند للامام أحمد ٩٦/٣.

وأخيراً لنستمع إلى تذكير حيوي من "أسعد مخلص باشا" إذ يقول:

الصدق والثبات ضروريان في الاستقامة
ثبت قدمك في المركز وطرف البركار في الدوران.

اَللّهم اهدنا الصراط المستقيم، وصلّ وسلّم على سيدنا محمد سيد المتقين وآله وأصحابه أجمعين.

التوكل، التسليم، التفويض، الثقة

التوكل هو مبدأ الأحوال التي تخص عالم الأمر أو السير الروحاني، بالاعتماد على الله والثقة به، ثم المضي قلباً في دائرة التبرّي من كل قوة وحول بشري ، وفي النتيجة إحالة كل شيء إلى القدير المطلق وبلوغ الاعتماد التام على الله وجداناً في النهاية.. والذي يلي التوكل ويأتي بعده بخطوتين هو "التسليم".. وبعده بجولة هو "التفويض".. ومنتهاه "الثقة".

التوكل، يعني اعتماد القلب على الله والثقة به كلياً وشعوره بالنفور والامتعاض عن ملاحظة أي قوة ومصدر كان. ولا توكل إن لم يكن اعتماداً وثقة بهذا المقياس. إذ لا يوصل إلى التوكل الحقيقي طالما أبواب القلب مفتوحة للأغيار.

التوكل، رعاية الأسباب دون خلل ضمن دائرة الأسباب، ومن ثم انتظار تصرف القدرة المطلقة علينا، إذ بعده بخطوتين هي مرتبة "التسليم" التي وصفها كثير من أولياء الحق "كالميت بيد الغسّال"، وبعدها بأقدام يأتي مقام "التفويض" الذي هو إحالة كل شيء إلى الله تعالى وانتظار كل شيء منه. فالتوكل مبدأ والتسليم نتيجته والتفويض ثمرته. وعليه فالتفويض أوسع منهما وهو ملائم للمنتهين، لأن فيه ما هو أبعد من تبرّي الإنسان من حوله وقوته والذي هو

مرتبة التسليم والبلوغ إلى أفق (لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِالله) والشعور بما فيه من "كنز مخفي" كل آن، وامتلاك خزائن الجنة الخاصة وغناه بها.

وبمعنى آخر: إن سالك الحق يشعر بعجزه وفقره بتذكير ما في وجدانه من نقطة الاستناد ونقطة الاستمداد، وبعد إحساسه بهما يقول "لا أستغني عنك خذ بيدي يا إلهي.. خذ بيدي" ويتوجه إلى منبع القوة والإرادة والمشيئة.

فالتوكل هو اتخاذ الفرد ربه وكيلاً لأجل مصالحه، دنيوية كانت أو أخروية. أما التفويض فهو اسم للاعتراف بالأصالة التي وراء هذه الوكالة بشعور وجداني.

وبتعبير آخر: التوكل أن يعتمد الإنسان على الله وما عنده، ويوصد أبواب القلب دون سواه، ويمكن أن نعني بهذا طرح البدن في العبودية وتعلق القلب بالربوبية.

يقول المرحوم "شهاب" معبراً عن هذا المعنى:

تَوَكَّلْ عَلَى الرَّحْمَنِ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ فَمَا خَابَ حَقًّا مَنْ عَلَيْهِ تَوَكَّلاَ

وَكُنْ وَاثِقًا بِاللهِ وَاصْبِرْ لِحُكْمِهِ تَفُزْ بِمَا تَرْجُوهُ مِنْهُ تَفَضُّلاَ

وأعتقد أن سيدنا عمر ﷺ أراد هذا المعنى في رسالته التي أرسلها إلى أبي موسى الأشعري ﷺ، جاء فيها: "أما بعد، فإن الخير كلَّه في الرضى. فإن استطعتَ أن ترضى، وإلاّ فاصبر".[1]

ومن زاوية أخرى فالتوكل اسم للاعتماد على الله، وهو حال الناس عامة

---

١) مدارج السالكين لابن القيم ٢/١٧٠.

والتسليم هو حال المتنبهين إلى الحياة القلبية والروحية؛ أما التفويض فهو عنوان عدم التعلق بالأسباب والتدبير، وهو حال أو مقام يخص أخص الخواص. فسالك الحق الذي يسيح في سماء التفويض، حتى لو كان منشغلاً ظاهراً بالتدبير والأسباب، فهذا الاشتغال من ضروريات وجوده في دائرة الأسباب، ومن لوازم مأموريته تجاه الحق تعالى. إذ بخلاف ذلك لو اتخذ الأسباب مرتكزاً ومستنداً حقيقة، فإنه يتردى من مرتبة بازٍ سماوي إلى دابّة حشرية تزحف على الأرض.

تذكر كتب المناقب الحادثة الآتية المتعلقة بهذه الملاحظة: أن أحد أولياء الحق لدى انفعاله الشديد في أثناء اتخاذه التدبير ضمن دائرة الأسباب، سمع هاتفا يهتف به:

لاَ تُدَبِّرْ لَكَ أَمْرًا إِنَّ فِي التَّدْبِيرِ هَلْكَى

فَوِّضِ ٱلأَمْرَ إِلَيْنَا نَحْنُ أَوْلَى لَكَ مِنْكَا

فإن "ترك التدبير" الذي يعني التجرد من جَلَبة الأسباب وعدم فسح المجال للوسائط في القلب، عمقٌ عظيم، لا يطاله عامة الناس ولا يقدر عليه إلاّ الروّاد الأفذاذ الذين يستمسكون بعلاقتهم مع الحق سبحانه وهم بين الخلق.

إن عدم إعطاء التأثير الحقيقي للأسباب مع التوسل بها هو "توكلٌ" لعامة الناس، و"تسليمٌ" لمن انتبه إلى ما وراء حجب الأشياء، و"تفويضٌ وثقةٌ" لأهل السكينة والأمان كلٌّ حسب درجته. وما ألطف ما يقوله الرسول الحبيب ﷺ عندما يربط الإرادة والجهد والعمل والتفويض والتوكل معاً: (لَوْ

أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا).[1]

وكل فرد يأخذ حظاً من فهم هذا الكلام النبوي حسب درجته:

١- العوام يفهمون منه: الاعتماد على الله بمعناه العام. كما تشير إليه الآية الكريمة ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (إبراهيم:١٢) ويذكره مولانا الرومي مقتبساً من الحديث الشريف:

گَرْ تَوَكُّل رَهْبَرَسْت اِين سَبَب هَمْ سُنَّت پَيْغَمْبَرسْت

گُفت پَيْغَمْبَرْ بَآوازِ بُلَنْدْ بَا تَوَكُّلْ زَانُوي اُشْتُر بَبَنْد[2]

أي: مهما كان التوكل مرشداً ودليلاً، فرعاية الأسباب سنة نبوية. فقد نادى الرسول ﷺ اعقِلها وتوكّل.[3]

٢- أما الذين يمضون حياتهم في سفوح القلب والروح ويتبرّأون من حولهم وقوتهم مستسلمين إلى حول الله وقوته، فيفهمون منه: حال الميت بيد الغسّال، وتذكّرنا به الآية الكريمة: ﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (المائدة: ٢٣).

٣- أما الذين يجولون في ذرى الفناء في الله والبقاء بالله، فهؤلاء يفهمونه

---

١) الترمذي، الزهد ٣٣؛ ابن ماجة، الزهد ١٤؛ المسند للامام أحمد ١/٣٠،٥٢؛ كتاب الزهد لابن المبارك ١٩٧ (والنص منه).

٢) مثنوي معنوي لمولانا جلال الدين (فارسي) ج١/ص٥٠/ب٩١٢.

٣) (جاء رجل على ناقة له، فقال: يا رسول الله هل أدعها وأتوكل؟ فقال: اعقلها وتوكل). الترمذي، صفة القيامة ٦٠؛ الصحيح لابن حبان ٢/٥١٠.

"تفويضاً" كسيدنا إبراهيم عليه السلام الذي قال: (حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ،[1] أي علمُه بحالي يُغني عن سؤالي. أو يفهمونه "ثقة" كما هو الحال لدى مفخرة الإنسانية ﷺ الذي قال ﴿لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾ (التوبة:٤٠) في ثقة تامة واطمئنان بالغ حينما سقطت ظلال الأعداء على فم الغار وارتجت جنبات " ثور" بتهديداتهم الرهيبة التي أرعبت الجميع. والقرآن الكريم يبين هذه الحقيقة بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (الطلاق: ٣).

التفويض أسمى المراتب، والثقة أعلى المقامات، فمن بلغ هذه المرتبة وفّى هذا المقام حقه، لا يذوب بعقله ومنطقه وعقيدته، بل أيضا بجميع مشاعره الظاهرة والباطنة في أوامر الحق تعالى وإشعاراته، حتى يصبح مرآة مجلوة لله تعالى.

ولهذه المرتبة التي تفوق المراتب، أماراتها الخاصة بها، نذكر منها:

١- السكون والطمأنينة برؤية التدبير ضمن التقدير.

٢- العلم بأن إرادته ظلٌ للإرادة الحقيقية والتوجه إلى الأصل.

٣- استواء القهر واللطف لديه وإبداء الرضا بجميع كيانه بالقضاء.

و"صاحب المنهاج" يرسم خطوط التفويض كالآتي:

وكّلتُ إلى المحبوب أمري كلَّه فإن شاء أحياني وإن شاء أتلَفا

وكلام جميل آخر من "واصف اندروني":

لابد أن سيظهر حكم القدر

---

١) انظر: البخاري، تفسير القرآن آل عمران؛ شعب الإيمان للبيهقي ٣٠/٢؛ حلية الأولياء لابي نعيم ١٩/١.

ففوّض الأمر إلى الحق ولا تتألم ولا تتكدر.

ومن أجمل ما قيل في التفويض هو ما قاله إبراهيم حقي في قصيدته "تفويض نامه" – رسالة التفويض – التي مطلعها:

الحق تعالى يجعل الشرور خيرات
لا تظنن يفعل غير ذلك
فالعارف يشاهده
لنرَ مولاي ما يفعل
ما يفعله هو الأجمل
كن متوكلا على الحق
وفوّض الأمر إليه تُرِح نفسك
كن صابرا راضياً
لنرَ مولاي ما يفعل
ما يفعله هو الأجمل".[1]

ربّنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير، وصلى الله على سيدنا محمد سيد المرسلين وعلى آله وأصحابه أجمعين.

---

١) معرفتنامه لإبراهيم حقي (تركية) ص ١٤٩/١.

الخُلق

الخُلق هو المزاج، الطبع، السجية. فهو أهم غاية للخَلق، والبُعد الحقيقي للخَلق الجبلّي، وتصرّف إرادة الإنسان على حقيقة "الخَلق" مستهدفاً الأخلاق الإلهية. فمن أحسن استعمال هذا التصرف وألبس الخَلق لباس "الخُلُق" سهلت عليه جميع الأعمال الصالحة.

نعم: الخَلق والخُلق يأتيان من جذر واحد. ولا يتباينان في الأساس من حيث البنية. إلاّ أن الخَلق، يُرى بالبصر، ويُدرَك بالحواس الخارجية، لما له من معنى تغلبت عليه المادة المتعلقة بالهيئة والشكل والهيكل. بينما الخُلق، هو أصل ومحتوى ومعنى يُدرَك بالقلب، ويُشعر بالأحاسيس ويُمثّل بالروح.

الإنسان مجهول بواجهته الخارجية، لا يُظهر هويته الحقيقية إلاّ طبعُه ومزاجُه وسجيتُه. والناس مهما ظهروا بمظاهر مختلفة، فإن طبعهم وسجاياهم لا بد أن تكشف عنهم في يوم من الأيام. وقد عبّر عن هذا شاعر جاهلي بقولِ عارفٍ:

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ[1]

وبتعبير آخر، إن الخُلق يصحح جميع تضليلات المظاهر وخداعات

---

١) انظر قول زهير بن أبي سلمى هذا في: خزانة الأدب للحموي ٤٩٢/٢.

الأشكال فيكون مترجماً لخفايا ذات الإنسان نفسه. وفي الحقيقة حينما يُذكر "الخُلقُ" تُذكر معه الأخلاق الحسنة، ولكن لما كان بعض الخُلق يصبح مَلكة بمرور الزمان، فيتحول الخير وكذا الشر إلى جزء من عمق طبيعتنا، فيرد تباعاً تقسيم آخر هو: "الأخلاق الحسنة" و"الأخلاق السيئة"، إلاّ أننا هنا نقصد "الأخلاق الحسنة" وحدها.

إن أوثق معيار للتصوف هو "الخُلق الحسن" فمن زاد عليك في الخُلق زاد عليك في التصوف، أما الحالات الخارقة والمقامات المحيرة والتصرفات الفائقة على طاقة البشر، حتى لو عدّت أزاهير الخُلق الحسن وثمراته فلا قيمة لها ما لم تقترن بالأخلاق الحسنة.

أمَا يقول صاحب الشريعة ﷺ :(خِيَارُكُمْ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلاقاً)[1] عندما سئل: أي المؤمنين أفضل؟

ولِمَ لا، فإن الله سبحانه وتعالى، قد وصف أفضل عباده وأكرمهم، في مقام التسلية والأمان والثناء بـ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:٢) مع عظيم آلائه وعميم ألطافه عليه، بمعنى: إنك على خُلق عظيم بحيث لا يمكن الإحاطة به ولا إدراكه بمداه القرآني ومرتكزه الإلهي. فيلفت الأنظار إليه بأخلاقه الرفيعة السامية، وبمزاياه الروحية العالية، أي: بخُلقه الذي يُعد غاية خلقته، ومنتهى هدفه ومعناه الحقيقي.. أي بخُلقه القرآني الذي بدأ بأول إنسان وتكامل حتى عصر النور واختتم به.

---

١) ابن ماجه، الزهد ٣١؛ المسند للامام أحمد ٢٧٨/٤. وفي الباب أحاديث كثيرة؛ انظر مثلاً: البخاري، الأدب الرضاع ١١، الإيمان ٦؛ أبو داود، السنة ١٦.

إن ما نقوله من حقيقة، وهي الخُلق الذي يأتي بمعنى رسوخ الدين والعيش به وامتثال القرآن دون خلل، يؤيده جواب أمنا عائشة رضي الله عنها على استفسار سعيد بن هشام: (يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَنْبِئِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَتْ أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ قُلْتُ بَلَى قَالَتْ فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ).[1]

ومن جهة أخرى، فالكلمات التي تشكل الآية المنزلة، تذكّر بالذات: أن هذه الأخلاق هي أخلاق ذات أصالة إلهية، قرآنية، وفوق الإدراك، وتشير إلى تجلي هذه الأخلاق وظهورها، وفضلا عن خصوصيتها بالمخاطب الكريم، فإن خُلقه قرآني عميق الغور لاهوتي السعة، لا يقاس بأي نظام خلقي آخر قط، وأن هذا الخلق السامي الرفيع فوق الإدراك، المشار إليه بالتفخيم في تنوين كلمة "خُلُقٍ". مما يبين بوضوح أنه لا نظير له بين الناس لا سابقاً ولا لاحقاً، فهو نبي الخُلق الجميل بل أجمل من كل جميل.

نعم، إنه من حيث مادته ومعناه، وظرفه ومظروفه، وخَلقه وخُلقه، مفتوح للصالحات كلها، إذ شُرّف بفطرة، وسجايا ومَلكات، مهيأة لامتلاك الخيرات جميعها ومستعدة لأنواع العظمة كلها. ثم سار إلى "أعلى عليي الكمالات" مقدراً أفضل تقدير لمواهبه الأولى هذه، ولم يكتف بالسير وحده، بل تنبهت جميع الألطاف الإلهية التي تجلت فيه بالأصالة، وجميع الفيوض القدسية المقدسة بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب:٢١) فأخذ بأيدي معاصريه ذوي الأرواح الطاهرة وهم

١) مسلم، صلاة المسافرين ١٣٩؛ أبو داود، الصلاة ٣١٦؛ النسائي، قيام الليل وتطوع النهار ٢.

صفوة الصفوة، ورفعهم أيضاً إلى ذرى شواهق تترتب على تبعيتهم.

وفي لسانه جواهر الأقوال:

١. (خِيَارُكُمْ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلاقًا).[١]

٢. (إنّ العبدَ لَيبْلُغ بِحُسْنِ خُلُقِهِ عظيمَ درجات الآخرة).[٢]

٣. (أَثْقَلُ شَيْءٍ فِي الْمِيزَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خُلُقٌ حَسَنٌ).[٣]

وفي يده وصفة ذات أسرار لجعل الإنسان إنساناً كاملاً، فجال بالذين يتبعونه وساح بهم في الآفاق التي تحول فيها الملائكة.

وقد لُخصت علامةُ حسن الخُلق، القولي والفعلي، بالجمل الآتية: عدم الإيذاء .. وغض الطرف عمن آذوه، وتناسيهم حتى لو أبصرهم.. ودرء السيئة بالحسنة.. ولا جرم أن الذي بُشّر بحقيقة ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:٢) لهو أفضل مثال لهذا. فهو لم يمتعض ممن وقف قبالته وقال له: اعدل[٤].. ولا ممن آذاه بأخذه بحجز ردائه[٥].. ولا ممن نثر التراب على وجهه[٦]... ولا ممن افترى على زوجته الطاهرة[١]... بل ناهيك عن

---

١) الترمذي، الرضاع ١١؛ أبو داود، السنة ١٦؛ المسند للامام أحمد ٢/٢٥٠، ٦/٩٩.

٢) المعجم الكبير للطبراني ١/٢٦٠؛ المسند للديلمي ١/١٩٧؛ مجمع الزوائد للهيثمي ٨/٢٥،٢٤؛ كشف الخفاء للعجلوني ٢/٢٦١،٢٦٠.

٣) المصنف لابن أبي شيبة ٥/٢١٢؛ المسند لعبد بن حميد ٤٥٢؛ المعجم الكبير للطبراني ٢٤/٢٥٣، ٢٥/٧٣؛ حلية الأولياء لأبي نعيم ٥/٧٥ .

٤) البخاري، الأدب ٩٥، المناقب، ٢٥؛ مسلم، الزكاة ١٤٢.

٥) البخاري، فرض الخمس ١٩؛ مسلم، الزكاة ١٢٨.

٦) البخاري، التاريخ الكبير ٨/١٤؛ المعجم الكبير للطبراني ٢٠/٣٤٢؛ مجمع الزوائد للهيثمي ٦/٢١.

امتعاضه منهم، عادهم في مرضهم،[٢] وحضر تشييع جنائزهم[٣] ذلك لأن الأخلاق الحسنة لون طبيعته وبعدُ خِلقته.

كم ممن يظهرون بخلق جميل، وليونة الطبع، و دعوى الإنسانية، ولكن الأخلاق الحسنة واللين في حياتهم لا تعدو صورة مزيفة وبلورة قابلة للكسر حالاً. إذ يكفي لإبراز وجوههم الحقيقية، وفكرهم الحقيقي، غضب بسيط، وشدة قليلة، وتعرض خفيف.

لكن المزيّن صدراً بالأخلاق الحسنة، لا يبدل طوره حتى لو وضع في جهنم، بل يعيش هناك أيضاً حليماً سليماً، يحاور الزبانية ويسامرهم.. يتحمل كل ما أصابه بصدر رحب وقلب واسع.

إن القلب المفتوح للأخلاق الحسنة شبيه بمكان واسع فسيح. وحتى لو كانت همومه تسع الدنيا فإنه يستطيع أن يجد موضعاً ليدفن فيه غيظه وحدته. أما ذوو الأخلاق السيئة، ضيقو الصدر فهم حمقى بل أشد حماقة من الغراب أمثال "قابيل"، فلا يجدون قبراً في الأرض الواسع الرحب ليدفنوا حدهم وغيظهم وأحاسيسهم الذميمة.

وننهي هذا الفصل قائلين:

" كمال الإنسان بالأخلاق
نظام العالم بالأخلاق ".

---

١) البخاري، الشهادات ١٥؛ مسلم، التوبة ٥٦.

٢) أبو داود، الجنائز ٤؛ المسند للامام أحمد ٥/٢٠١؛ المعجم الكبير للطبراني ١/١٦٣.

٣) البخاري، تفسير سورة التوبة ١٢؛ مسلم، المنافقين ٢-٣.

اللّهم عفوَك وعافيتَك ورضاك وتوجّهَك ونفحاتِك وأُنسَك وقُربَك. وصلّ وسلم على من أرسلته رحمة للعالمين وآله وأصحابه الغرّ المحجّلين.

التواضع

التواضع هو التذلل، عكسُه التكبّر. ويمكن أن نعرّفه أيضاً بأنه: شعور الإنسان بموقعه الحقيقي أمام الحق سبحانه، والسلوك وفقه، وتقييم مكانته لدى الخلق من زاوية هذا الفهم، وعدّ نفسه كأحد من الناس، أو كأي جزء من أجزاء الوجود. وأيا كان التعريف فمتى ما تقبل الإنسان -بروح متواضعة- أن تكون نفسُه عتبة الباب، موطئ البيت، حجر الرصيف، حصاة الجداول، تبن السنابل، تمكّن أن يعبّر كما عبّر "الإمام آلوارلي":

الكلّ حسنٌ إلاّ أنا

الكلّ قمح والتبن أنا.

فيكون مرفوع الرأس، مرموقاً مقبولا لدى أسمى المقامات من أهل الأرض والسماوات. أمَا يقول الصادق المصدّق ﷺ في حديثه الطيب الجميل المسند إليه (مَنْ تَواضَع للهِ رَفعَه اللهُ ومَن تَكّبر وَضَعه الله)[1] بمعنى أن الكبير والمتكبر والمتواضع والوضيع يتناسبان تناسبا عكسياً.

ويرى البعض أن التواضع هو أن لا يرى الإنسان في نفسه قيمة. ويقول البعض الآخر: هو احترام الناس بما يليق بإنسانيتهم ومعاملتهم بإنكار الذات..

---

١) المعجم الأوسط للطبراني ١٤٠/٥؛ مجمع الزوائد للهيثمي ٣٥٢/١٠. وانظر: أحاديث مشابهة في المسند ٧٦/٣؛ كتاب الزهد لابن أبي عاصم ١٥٦؛ المسند لأبي يعلى ٣٥٨/٢.

وآخرون: أن يعدّ نفسه أشرّ الناس ما لم يتغمده الله بعنايته سبحانه عناية فائقة. وآخرون: اتخاذ موقف تجاه أي نأمة داخلية للأنانية في نفسه صغيرة كانت أم كبيرة، وبذل الجهد لخنقها في موضعها. فكل واحد من هؤلاء له فهمه وطرز تلقيه الخاص، بيد أن الأخير يتعلق بالمقربين والمخلَصين أكثر.

قال عروة بن الزبير: رأيت عمر بن الخطاب ﷺ وعلى عاتقه قربة ماء، فقلت: يا أمير المؤمنين لا ينبغي لك هذا، فقال –من نصب خباءته في مقام القرب–: لمّا أتتني الوفود بالسمع والطاعة، دخلتْ في نفسي نخوة –حاشاه أن تكون نخوة كما نفهمها نحن نوعاً من الكدورة– فأحببتُ أن أكسرها، ومضى بالقربة إلى حجرة امرأة من الأنصار فأفرغها في إنائها.[1] وكذا حمله الدقيق على ظهره. ولوم نفسه على المنبر[2] وسكوته عمّن عاتبه[3].. كل ذلك من قبيل كسر النفس والتواضع.

ورؤي أبو هريرة ﷺ وهو أمير المدينة المنورة، وعلى ظهره حزمة حطب، وهو يقول: "طرّقوا للأمير، أي افسحوا للأمير طريقاً".[4]

وقيل: ركب زيد بن ثابت ﷺ فَدَنا ابنُ عباس (حبر الأمة) رضي الله

---

١) الرسالة للقشيري ٢٤٤.

٢) روي أن عمر بن الخطاب رقى المنبر وجمع الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس لقد رأيتني وما لي من أكال يأكله الناس إلا أنّ لي خالاتٍ من بني مخزوم فكنتُ أستعْذِبُ لهن الماءَ فَيُقَبِّضْنَ لي القبضات من الزبيب. قال ثم نزل عن المنبر فقيل له ما أردتَ إلى هذا يا أمير المؤمنين؟ قال إني وجدتُ في نفسي شيئا فأردت أن أطأطئ منها. الطبقات الكبرى لابن سعد ٢٩٣/٣.

٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣١٤/٦؛ مجمع الزوائد للهيثمي ٢٨٤/٤.

٤) إحياء علوم الدين للغزالي ٣٥٥/٣؛ مدارج السالكين لابن القيم ٣٣٠/٢؛ الرسالة للقشيري ٢٤٥.

عنهما ليأخذ بركابه، فقال: مه يا ابن عم رسول الله، فقال: هكذا أُمرنا أن نفعل بعلمائنا، فأخذ زيد بن ثابت يد ابن عباس فقبّلها، وقال: هكذا أُمرنا أن نفعل بأهل بيت رسول الله ﷺ.[1]

ومرّ الحسن بن علي رضي الله عنهما بصبيان معهم كِسَرُ خبز فاستضافوه فنزل وأكل معهم، ثم حملهم إلى منزله وأطعمهم وكساهم.[2]

وقيل: تشاجر أبو ذر الغفاري وبلال الحبشي رضي الله عنهما، فعيّر أبو ذر بلالاً بالسواد. فشكاه إلى النبي ﷺ فقال: يا أبا ذر إنه بقي في قلبك من كبر الجاهلية شيء، فألقى أبو ذر نفسه، وحلف أن لا يرفع رأسه حتى يطأ بلال خده بقدمه، فلم يرفع حتى فعل بلال ذلك.[3]

وأمثال هذه الحوادث كثيرة، كلها نماذج للمحوية والتواضع.

إن من يستمع إلى كتاب الله الجليل والسنة المطهرة لا تبقى لديه أية شبهة من أن العبودية الحقة هي التواضع والمحوية لكثرة حثهما على التواضع. فقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ (الفرقان: ٦٣) صوت خالص زكيّ لهم، و﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (المائدة:٥٤) نَفَسٌ رقيق لطيف تفَجّر في قلوبهم وانعكس على سلوكهم. وأيضاً ﴿رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ (الفتح: ٢٩) التفاتة وتكرمة لهم تفوق التصور.

---

١) تقبيل اليد لابن المقري ٩٥؛ الإصابة لابن حجر ٤/١٤٦؛ الرسالة للقشيري ٢٤٤.

٢) الرسالة للقشيري ٢٤٧.

٣) مدارج السالكين لابن القيم ٢/٣٣٠؛ الرسالة للقشيري ٢٤٧.

وينثر المثل الكامل للإنسان ﷺ دراً نفيسة أمام أنظار قلوبنا، منها:

١. (إِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لاَ يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَـــدٍ، وَلاَ يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ).[١]

٢. (أَلا أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَحْرُمُ عَلَى النَّارِ أَوْ بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارُ عَلَى كُلِّ قَرِيبٍ هَيِّنٍ سَهْلٍ).[٢]

٣. (مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ دَرَجَةً رَفَعَهُ اللهُ دَرَجَةً حَتَّى يَجْعَلَهُ فِي عِلِّيِّينَ وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَى اللهِ دَرَجَةً وَضَعَهُ اللهُ دَرَجَةً حَتَّى يَجْعَلَهُ فِي أَسْفَلِ السَّافِلِينَ).[٣]

٤. (اللّهمّ اجعلني شَكورا واجعَلني صَبورا واجعلني في عَيني صـــغيراً وفي أعيُن الناس كبيراً).[٤]

وأمثال هـــذه الـــدرر كثيرة وكثيرة، أمَا قضى ﷺ حياته المباركة على هـــذا النمط ؟ فلنذكر نتفا منها:

أ . كان ﷺ يمرّ على الصبيان فيسلم عليهم.[٥]

ب . وكانت الأمَةُ تأخذ بيده ﷺ فتنطلق به حيث شاءت.[٦]

ج . وكان ﷺ في بيته في خدمة أهله.[١]

---

١) مسلم، الجنة ٦٤؛ أبو داود، الأدب ٤٨؛ ابن ماجة، الزهد ١٦.

٢) الترمذي، صفة القيامة ٤٥.

٣) المسند للامام أحمد رقم الحديث ١١٢٩٩.

٤) المسند للديلمي ٤٧٣/١؛ مجمع الزوائد للهيثمي ١٨١/١٠.

٥) (عن أنس بن مالك ﷺ أنه مَرَّ عَلَى صِبْيَانٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ وقال كان النبي ﷺ يَفْعَلُهُ). البخاري، الاســـتئذان ١٥؛ مسلم، السلام ١٥.

٦) الشفا للقاضي عياض ١٣١/١، ١٣٣.

د . ويشترك في العمل مع الآخرين.[٢]

هـ. وكان يخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويحلب الشاة، ويعلف البعير.[٣]

و. وكان يأكل مع الخادم.[٤]

ز. ويجالس المساكين.[٥]

ح . ويمشي مع الأرامل[٦] والأيتام[٧] في حاجاتهما.

ط . ويعود المريض، ويشيّع الجنائز، ويجيب دعوة العبد.[٨]

فبدءاً بالرسول الكريم ﷺ إلى سيدنا عمر وسيدنا عمر بن عبد العزيز ﷺ ثم إلى الألوف ومئات الألوف من الأولياء والأصفياء والأبرار والمقربين، وأرباب القلوب العظام في هذا العصر.. كلهم ساروا على النهج نفسه.. وأقروا: "إن مقياس العظمة في الكاملين هو التواضع. أما الناقصون القاصرون

---

١) (عن الأسود بن يزيد سألتُ عائشة رضي الله عنها ما كان النبي ﷺ يَصنَعُ في البَيْتِ قالتْ: كان يكون في مِهْنَةِ أَهْلِه فإذا سمعَ الْأذانَ خَرَجَ). البخاري، النفقات ٨، الأدب ٤٠؛ الترمذي، صفات القيامة ٤٥.

٢) المسند للامام أحمد ٣٨٣/٢؛ السيرة النبوية لابن هشام ٢٤/٢.

٣) الترمذي، الشمائل ٧٨؛ المسند للامام أحمد ٢٥٦/٦.

٤) (عن النبي ﷺ قال: إذا أتى أحدَكُم خَادِمُه بطعامه فَإنْ لَمْ يُجْلِسْهُ مَعَهُ فَلْيُنَاوِلْهُ أَكْلَةً أَوْ أَكْلَتَيْنِ أَوْ لُقْمَةً أَوْ لُقْمَتَيْنِ فَإنَّهُ وَلِيَ حَرَّهُ وَعِلاَجَهُ). البخاري، الأطعمة ٥٥؛ مسلم، الإيمان ٤٢.

٥) الشفا للقاضي عياض ١٣١/١.

٦) (عن أبي هريرة قال قال النبي ﷺ : اَلسَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَة والمسكين كَالْمُجاهد في سبيل الله أَوِ الْقَائِمِ اللَّيْلَ الصَّائِمِ النَّهَارَ). البخاري، النفقات ١؛ مسلم، الزهد ٤١.

٧) (قال رسول الله ﷺ أَنَا وَكَافِلُ اليَتِيم في الجنة هكذا وأشار بالسبابة والوسطى وفَرَّجَ بينهما شيئا). البخاري، الطلاق ٢٥؛ مسلم، الزهد ٤٢.

٨) البخاري، تفسير سورة التوبة ١٢؛ مسلم، المنافقين ٣.

فميزان الصُغر فيهم هو التكبر"[1] وبينوا الطريق إلى الإنسان الكامل لمن لم يفقدوا مواهبهم الفطرية.

إن التواضع الحق هو أن يحدّد المرء موقعه تجاه عظمة الحق تعالى ولا تناهيه، بأنه صفر ولا شيء إلى المطلق غير المحدود، ويملّك ذاته هذا المعنى. فالكاملون الذين توغل هذا الفكر في طبعهم، وبه بلغوا فطرة ثانية، هم متواضعون في علاقاتهم مع الناس وفي محويّة معهم مع الرزانة التامة. أجل، إن الذين حدّدوا موقعهم أمام الله سبحانه، هم في توازن دائمي سواء في حياتهم الدينية أو في علاقاتهم ومعاملاتهم مع الناس أو في مراقباتهم النفسية الخاصة بهم:

١. فهم في تواضع ومحويّة تجاه الدين، فلا إشكال لهم، لا بمنقوله ولا بمعقوله. لأنهم في استسلام تام له وإذعان بكل ما ثبت بالبيان القرآني النير والسنة الصحيحة والحسنة، لا يعارضون ما بلّغه الرسول ﷺ ولا سيما ما ثبت من أفعاله، حتى لو رأوا ما يخالف العقل والقياس والذوق والسياسة. علماً، ليس في روح الدين ما يخالف العقل القويم والقياس الصحيح والذوق السليم والسياسة الشرعية.

وعلى هذا الأساس، فما يقال: "يُرجَّح العقلُ على النقل إذا تعارضا" لا حظّ له من التواضع. فكما أنه ثرثرة أنانيين لا يعرفون المحمل الحقيقي لهذا الكلام، فإن فكراً: "يُقدِّم الرأيَ والقياسَ على النص" انحراف. والأذواق والكشوفات والكرامات الخارجة عن طريق السنة الشريفة استدراج.

---

١) الكلمات، اللوامع لبديع الزمان سعيد النورسي.

٢. وهم كذلك يعتقدون أنه لا سماح حتى لأصغر البدائل في تمثيل ما عُرّف بالتبليغ؛ لذا فهم منغلقون كلياً على ما هو خارج عن بيان الشارع الجليل. وإذا ما عرضت لأذواقهم ومداركهم ملاحظات مختلفة يؤوّلونها بقصر باعهم في الأمر ويجابهونها:

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلاً صَحِيحًا وَآفَتُهُ مِنَ الْفَهْمِ السَّقِيمِ[١]

٣. وهم كذلك مدركون تمام الإدراك أن لا خلاص في السبل المخالفة للكتاب والسنة. ويجدون أعظم منابع قوتهم في العبودية لله. وفي الحقيقة لن يكون العبد عبداً لله حقاً ويكون لما سواه مسترقاً، فالذين لا يستطيعون النجاة من ذل العبودية لغير الله لا يُنتظر منهم العبودية الخالصة لله. وما أجمل ما قاله بديع الزمان النورسي: "أيها الإنسان! إن من دساتير القرآن الكريم وأحكامه الثابتة: أن لا تحسبنَّ ما سوى الله تعالى أعظمَ منك فترفعَه إلى مرتبة العبادة، ولا تحسَبنَّ أنك أعظم من شيء من الأشياء بحيث تتكبّر عليه. إذ يتساوى ما سواه تعالى في البعد عن المعبودية وفي نسبة المخلوقية".[٢]

٤. إنهم لا يكلون ثمرات سعيهم إلى أنفسهم قطعاً، ولا يعدّون ما تفضل الله عليهم من قدم للامتحان تقدماً على غيرهم، ولا يجعلون بذل الجهد – بأية نية كانت– وسيلةً للتكبّر على الآخرين. ولا يعتمدون على حُسن ظن الناس بهم وتوجّههم إليهم ولا ينتظرون العِوَض، بل يعدّون حبّ الناس وتوقيرهم لهم ابتلاء من الله. فلا يستغلون إحسان الحق عليهم وسيلة تحكّم

---

١) للمتنبي في ديوانه ٤/٢٤٦.

٢) اللمعات، اللمعة السابعة عشرة، المذكرة الثانية لبديع الزمان سعيد النورسي.

بالناس، لما يرون من أن ألطاف الله بهم وسائل منّة وأذى بمن حولهم.

الخلاصة: إن التواضع هو الباب الرئيس لقَصر خُلُق الله. فهو أيضاً في مقدمة الوسائل للتقرب إلى الحق وإلى الخلق. فالوَردُ ينبت في التراب. والإنسان محصول الأرض لا السماء. والمؤمن أقرب ما يكون إلى الله في السجود عندما يكون الرأس والقدم معاً في موضع واحد.[1] وقد كُتبت في مستهل الدعوة السماوية الموجهة إلى سيدنا محمد ﷺ، كلمة (عَبْدِه) رمزاً لتواضعه ومحويته.

اللّهم وفّقنا إلى ما تُحب وترضى،
واجعلنا من عبادك المتواضعين. آمين

١) انظر: مسلم، الصلاة ٢١٥؛ النسائي، التطبيق ٧٨؛ المسند للامام أحمد ٤٢١/٢.

الفتوة

الفتوة تعني الشباب، البسالة. ومعناها العرفي؛ جامعٌ لمزيج من المعاني والفعاليات،كالكرم والسخاء والعفة والأمانة والوفاء والرحمة والعلم والتواضع والتقوى.. وغيرها من الحقائق. وهي مقام من المقامات التي يمر عليها سالك الحق، ولونٌ من ألوان الفقر والفناء، وصوتٌ من أصوات الولاية.

والفتوة عنوان الانقطاع التام على خدمة الآخرين، وتحمّل أنواع الأذى والآلام دون إبداء أي ضجر، وهي بُعد عميق لسعة حُسن الخُلق، ولونٌ آخر للمروءة.

وأصل الفتوة، من الفتى، وهو الشاب الحديث السن. وعند البعض: هي رمز التصدي لأي نوع من أنواع الفساد، وعنوان العبودية الخالصة. والترجمة البليغة والبيان الصداح لهذا المعنى هي الآية الكريمة: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ (الكهف: ١٣-١٤).

أما قوله تعالى: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ (الأنبياء:٦٠) فيبين قوة رجل الفتوة الحق، وتأثيره في المجتمع الذي يعيش فيه، وهو الذي همّته الإنسانية قاطبة، وأمة وحده، وشخصية تفوق الفردية.

أما ما ورد من كلمة فتى في قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ﴾ (يوسف: ٣٦) و﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا﴾ (يوسف:٦٠) فهو ليس في معرض الإشادة بشجاعتهم وفتوتهم، بل هم شباب اعتياديون وربما أقل من ذلك، والأصح أنهم خدام مأمورون.

ولقد ذكر الكثيرون أقوالاً كثيرة حول الفتوة منذ عهد النور إلى الآن. فهي لدى بعضهم: ألاّ تنافر فقيراً ولا تعارض غنياً[1].. وآخرون قالوا: أن تنصف وتنتصف[2].. وآخرون: إمرار العمر في عداء شديد مع النفس.. وغيرهم: نسيان الفرد نفسه والتفكير بمن تبعه متضرعاً إلى الله في الدنيا والآخرة بـ(أمّتي، أمّتي).. وآخرون: القيام ضد أي باطل كان وكسر كل ما يسدّ الطريق إلى المعبود الحق من الأصنام.. وآخرون: تحمّل الأذى والمساءة التي تعود إلى نفسه وانتفاضته انتفاضة الأسد الهصور في الحقوق التي تخص الله سبحانه.. وآخرون: التأوه والأنين لأصغر تقصير يصدر من شخصه، وغض الطرف عما لدى الآخرين من آثام.. وأن يرى نفسه في أدنى مراتب العبودية، لدى بحثه عن مراتب الولاية للآخرين.. وأن تُقرّب مَن يَقصيك، وتُكرم من يؤذيك، وان يكون في المقدمة عند الخدمة والعمل وفي منتهى المؤخرة لدى أخذ الأجرة.

هذا وإن هناك من أرجع هذه الأوصاف إلى أربعة أسس، حسب بيان سيدنا الحيدر الكرار ﷺ:

---

١) قاله الجنيد، الرسالة للقشيري ٣٦١.

٢) قاله المحاسبي، الرسالة للقشيري ٣٦١.

١- العفو عند المقدرة.

٢- الحلم والأناة عند الغضب والحدة.

٣- الإحسان والإنصاف حتى للأعداء.

٤- الإيثار ولو في الخصاصة.

وفي الحقيقة إن حياة سيدنا علي ﷺ قد نسجت نسجاً دقيقاً على هذه الأسس.

أجل، إن معاملته بحق ابن ملجم[١] وعفوه عن المستسلم له وتألمه الشديد لدى سماعه بمقتل خصمه من الصحابة.[٢] وقضاء عمره بالإيثار، حتى كان يلبس ثوب الصيف في عزّ البرد والشتاء [٣] فكان ﷺ مثالاً للفتوة في أحواله كلها، وفتى حقاً حتى قال عنه الرسول الأعظم ﷺ: (لاَ فَتَى إِلاَّ عَلِـيٌّ وَلاَ سَيْفَ إِلاَّ ذُو الْفِقَار)[٤] فقد وُلد طاهراً مطهّراً، وعاش نزيهاً منزّهاً، شجاعاً باسلاً، وارتحل عن الدنيا دون أن يتلوث بشيء منها. فقد كان متبعاً اتباعاً تاماً للجواب الذي تلقاه سيدنا موسى عليه السلام من الحق تبارك وتعالى حول سؤاله عن الفتوة، حيث قال لكليم الله: "تعيد نفسك طاهرة كما تسلَّمْتها طاهرة".

نعم إن أبرز أمارة للفتوة وأصلح مرقاة إلى الإنسان الكامل هو: توجيه

---

١) أسد الغابة لابن الأثير ٤/ ١١٨.

٢) مجمع الزوائد للهيثمي ٩/ ١٥٠.

٣) مجمع الزوائد للهيثمي ٩/ ١٢٢.

٤) الأسرار المرفوعة لعلي القاري ٣٦٧؛ عون المعبود للعظيم آبادي ١٠/ ٢٦٤؛ ميزان الاعتدال للذهبي ٥/ ٣٩٠.

جميع لطائف الروح المهيأة خلقة لتقبل التوحيد وفكر الإسلام، إلى التوحيد الحقيقي، والانفتاح لسعة القلب ورحابته متجاوزاً الحظوظ النفسية والجسدية، مع الانغلاق التام على كل شيء سوى التوسل بالأسباب الذي هو من ضروريات توظيفه في الدنيا، وصدّ كل ما يمكن أن يزعزع رؤية الحق تعالى من فكر وشعور منذ البداية. فمن عجز في البداية عن إبراز هذه الفعالية، و لم ينسلخ عن ميول النفس والهوى والشيطان والميل إلى الدنيا ومحبتها وحظوظ النفس لن يبلغ ذروة الفتوة.

طريق كنز الفتوة يمر من جبل (قاف)
أين منه من يتعب في السهل البسيط

رَبَّنَا آتِنَا مِن لدُنكَ رَحمةً وَهيّئْ لَنَا مِنْ أَمرِنَا رَشَدًا، وصلّ وسلم على سيدنا محمد المقتدى وعلى آله وصحبه ذوي الإحسان والوفاء.

الصدق

الصدق الذي يرد بمعنى التفكير الصائب، الكلمة السديدة، السلوك القويم، هو كون سالك الحق يكفّ نفسه عن كل ما لا يطابق الواقع، مخططاً حياته وفق الصدق والاستقامة، حتى يكون مثالاً أميناً للصدق والوفاء.. وبتعبير آخر جعلُه الصدقَ جزءاً من طبيعته، ومَلكةً في مشاعره وتفكيره وكلامه وسلوكه، بدءاً من حياته الشخصية إلى معاملاته مع الآخرين، ومن شهادته باسم إعلان الحق، إلى مزاحه وهزله، كي يصدُق عليه قوله تعالى: ﴿وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة: ١١٩) متحرياً الصدق في محيطه الذي يعيش فيه، ولدى أصحابه، حتى يُطلق عليه عند الله "صدّيقاً" كما ورد في الحديث الشريف. وبخلاف ذلك فالذي يعيش كاذباً سواء في تصوراته وتفكيره أو في سلوكه ومعاملاته، ويُمضي حياته بما لا يطابق الواقع، يطلق عليه في الملأ الأعلى "كذّاباً".[1]

الصدق أقوَم طريق موصل إلى الحق سبحانه، والصادقون هم المرشحون المحظوظون لهذا الوصال... الصدق روح العمل ولبّه، وأصوب محكّ لاستقامة الفكر.. وبالصدق يتميز أهل الإيمان من أهل النفاق، وسكان

---

١) انظر: البخاري، الأدب ٦٩؛ مسلم، البر ١٠٣-١٠٥؛ أبو داود، الأدب ٨٠ .

الجنان من أهل النيران.. الصدق صفة نبوية لمن ليسوا بأنبياء. وبفضل هـذه الصفة يبلغ الخدمة مرتبة المشاركة مع السادة في النعم نفسها.

وقد أثنى الله سبحانه على الذي لبّى هذه الرسالة الإلهية في أول ظهورها وصدّق بها، وصدّق مبلّغها، بصفته الصدق، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ (الزمر:٣٣).

الصدق هو أن يصون الفرد تكامل عمله وسلوكه، وأن يقول الحق حتى في مواطن الهلكة، التي لا ينجيه إلاّ الكذب، لئلا يقع في مباينة السر والعلانية والظاهر والباطن. وإن وقع فيها قضاءً وقدراً يضطرب متلويا ومتقلباً من حال إلى حال كي يتطابق فكره مع عمله وتصرفه، حتى يصفه الجنيد بقوله: "الصادق يتقلب في اليوم أربعين مرة، والمرائي يثبت على حالة واحدة أربعين سنة".[1]

إن أدنى مراتب الصدق هو استواء السر والعلانية، والباطن والظاهر في الأحوال كلها. تليها مرتبة، الصدق في الشعور والتفكر والتصور والنيات. وعلى هذا فالصادقون هم أبطال لا يحيدون عن الصدق والاستقامة في جميع أقوالهم وأحوالهم. والصدّيقون هم أولياء الحق -حقاً- مسدَّدون نحو الحق في خيالهم وتصوراتهم ومشاعرهم وتفكيرهم، بل حتى في ملامحهم وسيماهم.

إن توجيه جميع المَلَكات والقابليات، في السلوك والعزم والوفاء والعمل والتعامل، هو صدق كامل ووفاء خالص، وصفة نبوية في الوقت نفسه، حتى يقول الله بحقهم في كتابه المبين: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ (مريم:٤١) ملفتاً النظر إلى هذا الوصف الرفيع (الصدق)، إذ

---

١) الرسالة للقشيري ٣٣٦.

الذكر مطلقاً يُصرف الى كماله.

الصدق يتقدم جميع صفات الأنبياء العظام عليهم السلام، وهو أقوى محرك ومؤثر في مسلك الدعوة إلى الإيمان والقرآن في كل عصر، كما أنه أوثق بطاقة اعتماد في العالم الآخر لكل مؤمن، وأنفذ وثيقة ومستند له. حتى يلفت ربُّنا الجليل نظرَنا إلى هذه الحقيقة بقوله تعالى: ﴿هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ (المائدة:١١٩).

فالصدق هو الذي أوصل الأنبياء والأصفياء والمقربين إلى أعلى عليين، وذروة سنام القمم، وغدا لرقيهم المعنوي برقاً وبراقاً ، والكذب هو الذي أردى بالشيطان وأعوانه إلى أسفل السافلين. والأفكار إنما تحوم بأجنحة الصدق فتبلغ أفق القيم والجدارة. وأنواع السلوك القويم إنما تنشأ وتترعرع في أرض الصدق والوفاء.

والدعوات والتوسلات إنما تقبل وتُستجاب بقدر أدائها بالصدق، حيث تبلغ عرش الرحمة كأنها مقترنة بالاسم الأعظم. نعم، الصدق يؤثر كتأثير إكسير الاسم الأعظم. ولما سئل أبو يزيد البسطامي عن الاسم الأعظم قال: أروني اسماً أصغر من الأسماء الحسنى لأريكم الأعظم منها وأضاف: "إنما جعل الاسم الأعظم مؤثراً هو الصدق، فإذا ما دعي أي اسم من الأسماء الحسنى بصدقٍ فهو اسم أعظم".[1]

الصدق هو الذي أسطع نورَ التوبة على جبهة آدم عليه السلام... والصدق هو الذي أصبح سفينة نجاة لنبي الطوفان (نوح عليه السلام) يوم غرقت الدنيا

---

١) حلية الأولياء لابي نعيم ٣٩/١٠.

بالطوفان... والصدق هو الذي جعل النار المتأججة لسيدنا إبـــراهيم عليه السلام (برداً وسلاماً). نعم، الصدق مفتاح ذو أسرار لفتح مغاليق ما وراء أســـتار الوجود، فيرفع الذين يراوحون في العاديات إلى خوارق العادات. فالـــذين يديمون سياحتهم بالصدق لا ينقطع بهم السير، والذي يستعمل ذلك المفتاح لا توصد دونه الأبواب. وكم هي جميلة هذه الترنيمة التي ترنم بها ســـلطان العاشقين مولانا الرومي لبيان هذه الملاحظة العميقة:

صِدْقِ عَاشِقْ بَرْ جَمَادِي مِي تَنَدْ چِه عَجَبْ بَر دِلِ إِنْسَانِي زَنَدْ
صِدْقِ مُوسَى بَر عَصَا وُكُوهْ زَدْ بَلكِه بَر دَرْيَايِ پُرأُشْكُوه زَدْ
صِدْقِ أَحْمَدْ بَر جَمَالِ مَاه زَد بَلكِه بَر خُورْشِيدِ رَخْشَانْ رَاهْ زَد[1]

يعني: إن صدق العاشق يؤثّر حتى في الجمادات، فلمَ العَجَب من تأثيره في قلب الإنسان؟ وإن صدق سيدنا موسى عليه السلام قد أثّر في الجبل والعصا، بـــل حتى في ذلك البحر المتلاطم العظيم (يشير إلى ما هو ثابت بالآيات الكريمـــة من تحول عصا سيدنا موسى عليه السلام إلى حية تسعى في جبل الطور،[2] وانفتاح اثنتي عشرة طريقاً بضربها في البحر).[3] أما صدق سيدنا أحمد ﷺ فقد أثّر في جمال القمر بل حتى في تلك الشمس الساطعة.[4]

وقد ربط القرآن الكريم بآياته المختلفة، كون المؤمن مؤمنا حقاً، بمـــدى

---

١) مثنوي معنوي لمولانا جلال الدين (فارسي) ج٥/ص٨٢٥/ب٢٧٧٤-٢٧٧٥-٢٧٧٦.

٢) انظر: سورة طه: ١٧-٢٠.

٣) انظر: سورة الشعراء: ٦٣.

٤) إشارة إلى معجزتي انشقاق القمر وسكون الشمس.

تنسيقه لكلامه وسلوكه وعالمه الداخلي بل جميع أطواره وفق الصدق، ومدى نسجه لها جميعاً حول الصدق. وكذلك أكدت الآيات الكريمة أن هذا التنسيق والتنظيم بالصدق هو أساس سعادة الدنيا والآخرة. وإليكم بعض الجواهر البراقة من البيان الصدق:

١. ﴿وَقُل رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ (الإسراء:٨٠).

٢. ﴿وَاجْعَل لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾ (الشعراء:٨٤).

٣. ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ (يونس:٢).

٤. ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ. فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ (القمر:٥٤-٥٥).

نعم، لقد أشارت هذه الآيات الكريمة وبهذه العناوين: مدخل الصدق، مخرج الصدق، لسان الصدق، قدم الصدق، مقعد الصدق، إلى الطريق القويم الممتد من الدنيا إلى العقبى. أشارت إلى طريق طويل، وإلى زاد الطريق، وإلى نتيجة الطريق.

وحيث إن الدنيا كلها تعمل للآخرة كنظام مهيب، وكمعمل عظيم، فهم عندما يباشرون بعمل، ويسافرون إلى بلد، أو يهاجرون إلى موطن، أو يحلون في أرض، يتحرّون الصدق في جلوسهم وقيامهم، ويلاحظون في أطوارهم، مدخل الصدق، مخرج الصدق، لسان الصدق، قدم الصدق، مقعد الصدق. فيعيشون مستهدفين الآخرة مستمطرين الألطاف على حظوظهم.

إن كون المرء صادقاً في النية والقصد يتقدم كل شيء... فالتفكير الصادق، والقرار الصادق، والسلوك الصادق هو أُولى مراتب الصدق. وكذلك، يشترط لمن عزم على الصدق، عدم تراجعه عن قراره وعزمه، واجتنابه كل ما يخل بتفكيره ويثنيه عن عزمه.

والمرتبة الثانية: هي الرغبة في البقاء في الدنيا والحياة فيها، ليس إلاّ للالتزام بالحق ورفع شأنه، ولنيل رضاه سبحانه وحده. ولهذا أمارات، منها: ألاّ يشهد من نفسه إلاّ النقصان والتقصير، ودون الرضوخ لزينة الدنيا وإغراءاتها. وعدم العدول عن الطريق أو تغيير اتجاهه بسبب تخوفه عن الفتن الدنيوية.

المرتبة الثالثة: جعل الصدق معرفةً وجدانيةً كاملة، وانعقاد طبيعة الإنسان دوماً في جميع أطواره بالصدق. وهذه مرتبة عظيمة، هي مقام الرضا، وتعبّر عنه الكلمات الطيبة الآتية: (ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا وَبِالإِسْلامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً).[1]

نعم، إن أعظم الصدق هو الرضى بربوبية الله سبحانه وبدين الإسلام نظاماً إلهياً، وبسيد الأنام ﷺ مرشداً ورائداً. فالطريق إلى الإنسان الحق يمر من تحمل هذه المسؤولية الثقيلة والعسيرة جداً.

لنختم كلامنا بهذا البيت الجميل:

---

١) مسلم، الإيمان ٥٦؛ النسائي، الجهاد ١٨؛ المسند للامام أحمد ٢٠٨/١.

إنما يليق الصدق بالإنسان ولو أُكره.

فالله هـــو المعين للصادقين.

اللّهم اجعلنا من الذين قالوا رَبُّنا اللهُ ثم استقاموا.

وصلّ وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه المستقيمين.